قراءات في العمل الخيري

بقلم أ. رشيد أبو ثور

مقدمة:

لم يكتف الإسلام بفرض الزكاة لسد مختلف حاجات المعوزين، بل ألح علاوة على ذلك على العمل الخيري الطوعي ، من خلال قوله تعالى (فَاستبِقُوا الْخيرات إِلَى اللهِ مرجِعكُم جميعا) [المائدة: ٤٨] ، وقوله : (وافْعلُوا الْخير لَعلكُم تفْلحونَ) [الحج: ٧٧].

والغاية من هذا الحث على العمل الخيري، هي توسيع دائرة سد الاحتياجات الاجتماعية، من جهة، والحد من اكتناز المال وإجباره على العودة إلى الدورة الاقتصادية ، من جهة ثانية ، علما بأن لكنز المال عواقب اقتصادية ضارة ، كما لتركيز المال في يد فئة قليلة من الناس تبعات اجتماعية (متمثلة في تفشي إجرام المحرومين) وسياسية (هيمنة الفئة الغنية من خلال الرشاوى وشراء الذمم) سيئة. لقد كتب جان جاك روسو في العقد الاجتماعي أن الديمقراطية تتطلب كثيرا من المساواة في الثروة والمنزلة؛ وحتى يتمتع الناس بحرية حقيقية، يجب أن لا يكون أي مواطن ثري لدرجة تمكنه من شراء ذمة الآخرين، وأن لا يكون غيره في حضيض من الفقر، يضطره للارتشاء."[١]

نظام الوقف

وحرصا على تنظيم الفعل الخيري بالشكل الذي يضمن استمرارية وصول الدعم للمحتاجين ، أبدعت الحضارة الإسلامية نظام الوقف ، الذي يمثل الترجمة العملية لمفهوم الصدقة الجارية التي حث عليه نبي الهدى ﷺ [٢]. فلم يدع نظام الوقف حاجة كبيرة أو صغيرة للمسلمين من مأكل ومسكن ومشرب وتطبيب وتعليم وحج، إلا وسعى إلى تلبيتها ، لدرجة جعلت المُحسِنين يبدعون أعمالا خيرية، قد لا تخطر على البال ، من قبيل وقف الأعراس لإعارة الحلي ولوازم الزينة للعروس أو العريس، ووقف مواساة المريض لإسماع المريض ما يرفع من معنوياته، ووقف الزبادي [٣] ؛ ولقد أشمل خير الوقف حتى غير المسلمين ، حيث جاء في الأثر أن أم المؤمنين صفية (رضي الله عنها) زوج رسول الله ﷺ، كان لها وقف وقَفَته على أخ لها يهودي ، بل وأشرك المسلمون في وقفهم الخيري حتى الحيوان .

والحاجة ماسة اليوم أكثر من أي وقت مضى لتفعيل وحسن توجيه العمل الخيري، بسبب اتساع رقعة الفقر والاحتياج من جهة وبروز حاجات جديدة للمسلمين، من جهة ثانية.

فلقد أصبح "العالم اليوم جزيرة أغنياء تحيط بها بحار من الفقراء" ، كما قال رئيس جنوب أفريقيا "مبيكي" [٤] ؛ فمن بين ٦ مليار نسمة من سكان الأرض اليوم، يبلغ عدد سكان الدول النامية ٤,٣ مليارات ؛ ويعيش ما يقارب ٣ مليارات من هؤلاء تحت خط الفقر المحدد بدولارين أمريكيين في اليوم ؛ ويعيش ١,٢ مليار من هؤلاء بأقل من دولار واحد في اليوم. وهكذا يموت ٣٥ ألف طفل يوميا بسبب الجوع والمرض . وتقدر المنظمة من أجل التغذية والزراعة FAO بأن ٨٢٠ مليون فرد لا يجدون الغذاء الكافي [٥].

أسباب هذه الفوارق والفواجع

١- اســتــنــزاف الأغنياء لثروات الفقراء

وهذه الأرقام بليغة الدلالة عن الفواق الفاحشة في الثروة بين الدول الغنية والدول الفقيرة : يستحوذ ٢٠% من سكان الأرض على ٨٦% من ثرواتها ، وتعادل ثروة ثلاثة من أغنى أغنياء العالم الناتج المحلي لأفقر ٤٨ دولة، وتتجاوز ثروة ٢٠٠ من أغنى أغنياء العالم دخل ٤١% من سكان العالم مجتمعين.

وليس ما يقدم للدول النامية مما يسمى بالمساعدات أو الاستثمارات إلا وسيلة لاستنزاف ثروات الفقراء، حيث أن أكثر من ٨٠% من أرباح إجمالي الاستثمار الأجنبي المباشر في البلدان النامية يذهب إلى ٢٠ دولة غنية. ولقد صدر عن قسم الشؤون الاقتصادية والاجتماعية للأمم المتحدة [٦] ، أن حجم رؤوس الأموال التي انتقل من الجنوب إلى الشمال قد تجاوز سنة ٢٠٠٦ بـ ٦٥٨ مليار دولار حجم الأموال الآتية من الشمال إلى الجنوب. (وحسب الأرقام التي نشرتها اللجنة الوطنية للتعاون اللامركزي من فرنسا ، فلقد تم بين ٢٠٠٢ و٢٠٠٦ تقديم ٨٤ مليار دولار سنويا كمساعدة للدول النامية ، لكن هذه الأخيرة سددت خلال هذه المدة لأداء ديونها الخارجية، ٤٥٦ مليار دولار ، إضافة إلى ٦١٩ مليار دولار التي انتقلت من هذه الدول النامية إلى الدول دول الشمال بشكل غير قانوني.

٢- التشريد والنـزوح واللجوء الناتج عن الكوارث الطبيعية.

من الظواهر التي تؤدي كذلك إلى إفقار الشعوب، الكوارث الطبيعية، من زلازل وأعاصير وفيضانات وجفاف وتصحر، والتي تكاثر حدوثها خلال العقود الأخيرة ، بسبب استهتار الدول الصناعية بالأساس بإجراءات المحافظة على البيئة.

٣- الحروب

ثم هناك الحروب المدمرة التي لم تعد تستثني حجرا ولا زرعا ولا بشرا : فإذا أخذنا مثال فلسطين وحدها ، تقول لنا الأرقام ما يلي : ففي سنة ٢٠٠٦ وحدها، وقبل أن يقضي العدوان الأخير على غزة، على كثير مما تبقى، بلغ عدد الأشجار التي تم اقتلاعها ١٣,٥٧٢,٨٩٦ شجرة، وثم هدم ٧٨٤ مخزناً زراعياً، و٧٨٨ مزرعة دواجن وحظائر حيوانات بمعداتها، وقد نفق ١٤,٨٢٩ رأس ماعز وأغنام، وقتلت ١٢,١٥١ بقرة وحيوان داجن ، وتم إتلاف ١٦,٥٤٩ خلية نحل ، وهدم ٤٢٥ بئراً ، كما دمر ٢٠٧ منـازلاً للمزارعين بأثاثها.

ورد عن وكالة رويترز في ١٢ -٦- ٢٠٠٩ ، أن برنامج الأغذية العالمي التابع للأمم المتحدة حذر من ازدياد العدد الإجمالي للجوعى في العالم إلى أكثر من مليار شخص ، بعد أن دفع ارتفاع أسعار الغذاء ١٠٥ ملايين شخص آخرين إلى الجوع في النصف الأول من العام ٢٠٠٩.

وقالت مديرة البرنامج جوزيت شيران إن العالم يواجه كارثة إنسانية في وقت يجد فيه المزيد من الأشخاص صعوبة في تناول وجبة غذائية مناسبة .وأضافت أنه رغم تراجع معظم أسعار المواد الغذائية مقارنة بالمستويات القياسية التي بلغتها العام الماضي، لا تزال مرتفعة على نحو مستعص في الدول النامية، فيما وصلت المساعدات الغذائية العالمية إلى أدنى مستوى لها منذ ٢٠ عاما.

ويقول البرنامج إنه اضطر إلى تقليص حصص المساعدات الغذائية وإنهاء بعض العمليات في شرق أفريقيا وكوريا الشمالية بسبب نقص الاعتمادات .

٤- ثم **هناك انتشار الأمراض** وظهور أمراض جديدة ، بسبب التلوث واختلال نظام الحياة وطبيعة المأكل والمشرب .

كيف التعامل مع ظاهرة الفقر ؟

إذا كانت كل هذه العوامل تؤدي كما ذكر إلى تفاقم حالات الفقر والاحتياج ، فكيف إذن التعامل معها ؟

لا يجادل أحد في ضرورة تقديم مساعدة مالية أو عينية فورية ومستعجلة ، في حالات الأمراض الخطيرة و العمليات الجراحية المكلفة ، وحالات العوز الناجمة عن الكوارث الطبيعية ، أو عن الحروب، فهذه حالات استعجال ، وغالبا ما تكون استثنائية .

غير أن الذي يجب الوقوف عنده هي حالات الاحتياج في الظروف العادية ، والتي تدفع إلى التسول، وهي ظاهرة مستشرية، لم تسلم منها دول في العالم ، غنية كانت أم فقيرة. وهذه الظاهرة تحتاج إلى تعامل عقلاني وليس عاطفي، منسجم مع موقف الإسلام من التسول:

النهي عن التسول :

ينكر الإسلام التسول ويحذر من امتهانه ، بقوله رسول الهدى ﷺ: "**لا يزال الرجل يسأل الناس، حتى يأتي يوم القيامة وليس في وجهه مزعة لحم**" ؛ وقوله : "**من سأل الناس أموالهم تكثرا ، فإنما يسأل جمرا ، فليستقل أو ليستكثر**". وقوله : "**لأن يغدو أحدكم فيحطب على ظهره فيتصدق به ويستغني به من الناس خير له من أن يسأل رجلا أعطاه أو منعه ، ذلك فإن اليد العليا أفضل من اليد السفلى، وابدأ بمن تعول.**"

عواقب التسول:

ولم ينه الإسلام عن التسول إلا لما له من تداعيات خطيرة ، على كل من المتسول والمجتمع ، ومنها :

- **القضاء على عزة النفس** :لا يمكننا أن ننكر أن العمل الخيري بمفهومه المتمثل في تقديم الإعانة المباشرة للمتسولين، لا يساهم إلا في تكريس مجتمع المساعفة والتواكل والاستهلاك السلبي، ليقضي في نفس الوقت على معاني الأنفة وعزة النفس لدى من يجعل يده هي السفلى. فالإنسان الذي يريده الإسلام هو الإنسان المنتج والشهم ، الذي يأبى أن تكون يده هي السفلى، لأن اليد السفلى ليست مجرد حركة، وإنما استعداد نفسي يرضى بالمهانة و الصغار؛ فكم من متسول جمع من الأموال ما يغنيه عن التسول ويعفه عن الاستعطاف، ورغم ذلك لم يتخل عن التسول الذي تحول بالنسبة إليه إلى مهنة، وعن الاستعطاف الذي صار بالنسبة إليه سجية.

والكثير ممن يصحبون معهم أطفالا صغار ، ليسوا بالضرورة أبناء لهم، أو يوجهونهم للتسول، يورثون لهم هذه الخصال الدميمة منذ الصبا. ومن هانت عليه نفسه بهذا الشكل، لن يتورع في سلوك أي طريق يمكنه من تحقيق مراده؛ كما أن هذا النوع من الناس، الذين ربوا على الصغار والدونية لن يتورعوا في سوك طريق الخيانة لدولهم وشعوبهم ، إذا لاحت لهم بعض المكاسب المادية. ومجتمع تنعدم فيه خصال الشهامة والأنفة والعزة والصدق مع الله والنفس، لا يمكنه أن ينهض، لأن النهضة تبدأ في النفوس قبل أن تنجز على الأرض.

- **كسب من غير إنتاج** ، وهو ما يرفضه الإسلام الذي يشجع على العمل، بقول رسول الله ﷺ: وسلم: - "**ما أكل أحد طعاماً قط خيراً من أن يأكل من عمل يده، وإن نبي الله داود كان يأكل من عمل يده** " رواه البخاري

- تجميد **لرؤوس أموال** بعد إخراجها من الدورة الاقتصادية.

أفاد تقرير لمنظمة العمل الدولية أنه يوجد في مصر قرابة مليون متسول ، وقدر التقرير الدخل اليومي لكل متسول بما لا يقل عن ٣٠٠ جنيه (٨٠ يور تقريبا). وهذا مثال عن هذه الظاهرة الخطيرة التي لم ينج منها بلد إسلامي ، حيث ألقي القبض في الأردن بين ٢٠٠٣ و ٢٠٠٤ ، على ١٧٥٠ متسول أغلبيتهم من الأغنياء.

وأغلب هؤلاء المتسولين لن يتمكنوا من الاستفادة مما جمعوه من مال، لأنهم لا يستطيعون إظهار آثار النعمة عليهم، حتى لا فقدوا بإظهارها صفة المحتاج ؛ و قد يعيشون طول حياتهم في البؤس ـ مع ما يترتب عن ذلك من تجميد تلك الأموال وعدم إدراجها في الدورة الاقتصادية للمجتمع. فكم من متسول اكتشفت عنده بعد موته أموالا طائلة ، ظلت لسنين طويلة خارج الدورة الاقتصادية للبلاد.

- **الإجرام** ، حيث يلجأ المتسول لأساليب إجرامية ، بدء باستغلال الأطفال صغاراً وكباراً ، وحرمانهم من حقهم في التعلم ، وإجبارهم على البقاء رهن إرادة المتسول إما بالتخدير أو بالترهيب ؛ ودفعهم إلى التسول أو ممارسة الرذيلة ، بل وتشويه خلقتهم بالشكل الذين يجعلهم يؤثرون في الناس. فلقد ورد في كتاب "اليد السفلى" لأحمد سالم بادوبلان أن أحد المتسولين قام بسرقة أطفال وعذبهم ، وهددهم بالقتل ، ثم فقئ أعينهم وأطلقهم في الطرقات للتسول ؛ وتم القبض عليه وفي حوزته ما يقرب من ٥٠ طفلا ما بين عاجز ومشوه وكفيف.

و يتحدث الكاتب عن غرائب وعجائب التسول في الهند وباكستان ، حيث أورد ظاهرة تعرفها باكستان تسمى "أطفال الفئران" ، الذين يزيد عددهم على ١٠ آلاف فرد ، وهم أطفال لا يولدون مشوهين يشبهون الفئران، بل يتعرضون للتشويه عمداً من قبل عصابات التسول ، حيث يتم وضع رأس الطفل في خوذة حديدية تتسبب في تشويه رأسه ووجهه وتجعل جباههم تميل نحو الخلف وأنوفهم تطول وتبرز ، فضلاً عن تشويه عيونهم ، مما يجعل منظرهم مروعا.

ومن المتسولين في البلاد الغربية مع يستعمل العنف والترهيب لإجبار الناس على العطاء ، كأن يهددهم بكلب شرس إذا لم يعطوه ما يطلب.

الحل : هو ما فعله الإسلام : توجيه المحتاج إلى العمل والإنتاج .

لذا يجب مقاربة العمل الخيري بالصيغة التي وجه إليها رسول الله ﷺ عندما قال معلما أصحابه معاني الشهامة والكرامة:" **لأنْ يحتزم أحدكُم حزمةً من حطبٍ فَيحملها على ظَهره فَيبيعها خير له من أنْ يسألَ رجلاً يعطيه أو يمنعه** ". ولقد طبق ذلك عمليا عندما أتاه رجل متسولا ، يريد مالا، فقال له النبي ﷺ: "أما في بيتك شيء؟". فقال الرجل: بلى ، حلس (كساء) نلبس بعضه ونبسط بعضه ، وقدح نشرب فيه الماء. فقال النبي ﷺ: "ائتني بهما"، فجاء بهما الرجل، فقال النبي ﷺ: "من يشتري هذين؟ ". فقال رجل: أنا آخذهما بدرهم. فقال ﷺ: "من يزيد على درهم ، مرتين أو ثلاثًا ؟ "؛ فقال رجل: أنا آخذهما بدرهمين، فأعطاهما إياه، وأخذ النبي ﷺ الدرهمين، فأعطاهما الرجل الفقير، وقال له: "اشترِ بأحدهما طعاما فانبذه إلى أهلك، واشترِ بالآخر قدوما (فأسا) فأتني به." فاشتري الرجل قدوما وجاء به إلى الرسول ﷺ، فوضع له الرسول ﷺ يدا وقال له: "اذهب فاحتطب وبع ولا أرينك خمسة عشر يوما. فذهب الرجل يجمع الحطب ويبيعه، ثم رجع بعد أن كسب عشرة دراهم، واشترى ثوبا وطعاما، فقال له الرسول ﷺ: "هذا خير لك من أن تجيء المسألة نكْتةً في وجهك يوم القيامة ، إن المسألة لا تصلح إلا لثلاثة: لذي فقر مدقع، أو لذي غُرم مفظع (كبير) ، أو لذي دم موجع (عليه دية)" [أبو داود].

فالعمل الخيري الناضج هو الذي يعمل على تحويل المسلم المحتاج إلى منتج متوكل على الله؛ قد يقنع بالقليل، لكنه يأبى أن يتنازل عن كرامته ليحول إلى متسول ذليل، ولو جلب له ذلك الكثير.

ولا شك أن المستهدفين أو المحتاجين إلى الدعم ، مراتب ودرجات ، أنواع وأشكال ، منهم : المحتاج الذي ليس له أدنى تكوين ، ومنهم من يتوفر على تكوين علمي أو مهني معين لكنه عاطل ،و منهم حتى حاملي الشهادات العليا ؛ وبالتالي يجب التعامل مع مختلف هذه الفئات بما يناسب، والذي قد يتمثل في التكفل بالتكوين المهني لمن يحتاج ذلك ، أو توفير المستلزمات المادية الأولى للانطلاق في مشروع معين، إما عن طريق القرض ، أو عقد مضاربة ، أو ما إلى ذلك من أشكال التعاقد الشرعية، شريطة أن تكون التكاليف المالية بسيطة، يمكن توفيرها بسهولة. فرأس مال هذا العمل الخيري يجب أن يتمثل بالأساس في قدرته على ابتكار أفكار تكون منطلقا لمشاريع اقتصادية بسيطة، غير مكلفة ومجدية، بحيث تصير قضية المال مسألة ثانوية . والمهم أن يتخذ العمل الخيري منحى تكون فيه الجمعية الخيرية عبارة عن مكتب للدراسات والاستشارة والتوجيه وابتكار الأفكار، يقدم المساعدة التقنية أو الفنية أو الاستشارة القانونية، أكثر مما هي مؤسسة لمنح المعونات المادية المباشرة.

- **العمل الخيري وبناء المؤسسات**

- لقد مر معنا أن المسلمين الأوائل لم يقصروا مفهوم الصدقة الجارية على بناء المساجد ، بل وسعوه من خلال نظام الوقف ليشمل تلبية مختلف الحاجيات الفردية والجماعية للمجتمع .

- ولقد أضحى المسلمون في الغربي اليوم، بعد إنشاء المساجد ، بحاجة إلى **إنشاء المؤسسات التخصصية الفاعلية** التي **تمكنهم من مواجهة مختلف التحديات المؤثرة** في **أصل وجودهم** في **ديار الغرب .**

ألا يحتاج المسلون إلى **مؤسسة إعلامية قوية** ، تقدم الصورة الحقيقية عن المسلمين وقضاياهم المختلفة ؟

ألا يحتاجون إلى مؤسسات مقتدرة **تتولى** متابعة :

- ظاهرة **التخويف من الإسلام**،

- حملة **تشويه صورة المسلمين** في **وسائل الإعلام ومناهج التعليم**،

- قضية **التمييز** بخصوص فرص العمل والسكن، وتعليم الأبناء،

- **توجيه الطلبة** إلى **التخصصات التعليمية الملحة** بالنسبة للمسلمين مثل علوم الإعلام والحقوق والعلوم الاجتماعية عموما.

- **تكوين الأئمة** بالشكل الذي يخدم المصالح العليا للمسلمين.

وتحدد الأسلوب العملي لمواجهة كل هذه المعضلات، وغيرها من القضايا التي لها صلة بالوجود الجماعي للمسلمين، مثل قضايا الاندماج والمشاركة السياسية، وغيرها .

إن مواجهة هذه التحديات الجديدة، والتي لن تفيد في **حلها الشكوى والحسرة ، لا يمكن أن تكون** بجهود **فردية قاصرة، بل لا بد من عمل جماعي مؤسسي فاعل ، يجب أن يكون للعمل الخيري دور حاسم** في **تمويله، وسيكون لكل من ساهم** في **ذلك أجر الصدقة الجارية ، مصداقا لقوله عليه الصلاة والسلام: " إذا مات الإنسان انقطع عمله إلا من ثلاث: صدقة جارية، أو علم ينتفع به، أو ولد صالح يدعو له ."**

الهوامش :

١. لوموند ديبلوماتيك لشهر ١٩٩٥/٤

٢. يقول عليه الصلاة والسلام: " إذا مات الإنسان انقطع عمله إلا من ثلاث: صدقة جارية، أو علم ينتفع به، أو ولد صالح يدعو له."

٣. حيث بإمكان كل خادم كسر آنية ، وخشي من غضب مشغله ، أن يذهب إلى إدارة هذا الوقف، فيترك الإناء المكسور ويأخذ إناء صحيحاً بدلاً منه.

٤. في مؤتمر الأرض بجوهانسبرغ بين ٢٦ أغسطس و٤ سبتمبر ٢٠٠٢م.

5. Le monde diplomatique juillet 2008

6. Dossier global no 11, janvier 2008 / ISBN 1661-0032.